بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الانبار
كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

الأدب والتنمية
(مقاربة فكرية أدبية)

ا.م.د.نصرة أحميد جدوع

2013

مدخل:

التنمية ذلك المصطلح الفضفاف الذي يعد برأينا انجاز العقل البشري الموجه نحو خلق أسباب البقاء والعيش الكريم على الأرض,والأدب هو النتاج الروحي الأبرز للكائن البشري الذي يعبر عن أدق ما في النفس البشرية من سمات ,وما بينهما صلة قوية تتمثل في أن الإنسان هو غاية التنمية ومحور الأدب ومن ثم يمثل الهدف المشترك بينهما,فالتنمية تقوم على توفير السبل والطرائق التي يمكن بوساطتها تحقيق الرفاهية والحياة الكريمة للإنسان,والأدب يرمي إلى بناء عالم يقوم على أسس العدالة والصدق ويرسم صورة مشرقة للحياة ,من هنا كانت المقاربة بينهما ممكنة بل وتنجح في التعبير عن الرؤى المشتركة بينها فكانت هذه الدراسة محاولة لتلمس مناحي هذه المقاربة وعرضها في إطار يتماشى وخصوصية الأدب والتنمية,ولابد من الإشارة إلى أن

المقاربات المستنتجة تقع في ثلاثة مسارات أولها: التنمية في التفكير الأدبي والثاني : مفهوم الإبداع الأدبي ومحورية الشخصية الإنسانية في التفكير التنموي,والثالث وهو الإنسان بين الأدب وغايات التنمية,واقتصرنا على بحث جوهر تلك المسارات من خلال الأمثلة من الأدب العربي وغيره سعيا لتحقيق أهداف هذه الدراسة.

التنمية في التفكير الأدبي

لا شك في أن للأدب وظيفة لا تقل شانا عن أي ميدان آخر في حياة الناس،فهو ليس فنا كلاميا ولا تشكيلا جماليا غايته المتعة المتجردة عن الفائدة،مع الاعتراف بوجود تيار قوي ينادي بلا نفعية الأدب سعيا لتأكيد وظيفته الجمالية،وتمثل هذا التيار بما اصطلح على تسميته بمدرسة الفن للفن ،وعلى الرغم من الهدف الفني المأمول وراء هذه الدعوة إلا أن التذوق والمتعة المتحصلة من تمثل جماليات الأدب لا تخلو من غايات ذات أبعاد نفسية ،ولقد كشفت تجارب الأمم عبر التاريخ ارتباط الحضارة بالنهضة الأدبية إلى درجة تعذر فيها الفصل بينهما ،وفي تجارب اليونان والعرب والهنود وغيرهم أمثلة وافية ،لا بل أن الأنموذج اليوناني القديم كاف وحده لتأكيد هذه الحقيقة،فقد كانت النهضة الأدبية في فنون الشعر والخطابة والمسرح ،مثلنا نجد في استغراب الباحثين لغياب الأدب عن خمسمائة سنة من تاريخ الشعب الروماني والتفسيرات التي وضعت لفهم هذه الحال غير المألوفة أبرز دليل على ترابط الأدب مع الحضارة لا بتوصيفه الشكلي بل بالغايات التي تقف وراءه**(1)**

ومن منظور الحضارة التي تحتل مكانا وسطا في معادلة الغايات والأسباب بوصفها أنتجت بالأساس لخدمة الإنسان ورفاهيته وهو المنتج لها تتعزز الفكرة التي تؤكد ترابط مفردات المنجز الحضاري ومنها الأدب ببعضها وارتباطها العضوي بالغايات السامية للحضارة .

ومن بحث حيثيات علاقة الأدب بالمجتمع فقد كان الباحثون معنيون منذ زمن طويل بالروابط بين الفن والأديب والوسط الاجتماعي ،ويؤكد أحدهم أن العلاقة بين الأدب والمجتمع متبادلة فالأدب ليس مجرد معلول لعلة اجتماعية،بل انه العلة لمعلومات اجتماعية **(2)**ومن هذا

المنطلق وطالما بقيت العلاقة بين الأدب والمجتمع سيبقى المدخل الاجتماعي للأدب عاملا فعالا في النقد.

وإذا عدنا إلى التنمية بوصفها وجها من أوجه التفكير الحضاري وغاية من غاياته التي لا تنتهي بهدف محدد طالما توافرت لها أرضية الصراع مع الآخر لمجارات نسق التطور الذي لا يعرف التوقف وجدنا أن عملية التنمية تتضمن أكثر من مجرد الجانب المادي والمالي في حياة الشعوب فهي عملية متعددة الأبعاد تتضمن إعادة التوجيه للنظام الاقتصادي والاجتماعي في أي بلد **(3)**وبالتأكيد فان الأبعاد المعنوية ومنها النتاج الأدبي والفني هي نتاج غير مباشر لأي نجاح تنموي يحققه أي مجتمع ،ويؤدي الأدب دورا مزدوجا في مرحلتي البدء والانتهاء لكونه محركا أساسيا لتحقيق المنجز الحضاري الأبرز ,وفي كتابات جان جاك روسو التي فجرت الثورة الفرنسية التي تعد احد أهم الأحداث التي أسست للنظام الأوربي الحديث ولاحقا كتابات الأدباء الزنوج الأمريكيين في الستينات من القرن الماضي والكاتبات الأمريكيات الناشطات في مجال النسوية ومن قبلها الرواية الشهيرة(كوخ العم توم) لهارييت بيكر ورواية ذهب مع الريح التي كان لها وقعها الكبير في الأحداث والتغيرات التي وقعت بعدها،كل تلك وغيرها أمثلة واضحة على الدور الذي ينهض به الأدب في إحداث التغيير المنشود الذي يمثل جوهر مفهوم تنمية المجتمع القائم على أساس تنمية الإنسان،وأما في مرحلة الانتهاء فلا شك في أن من الصعب إحصاء نماذج النجاح الأدبي اللاحقة للطفرات الحضارية لا سيما في العالم المعاصر ومن قبلها ما سببته نهضة الحضارة الإغريقية من ارتقاء وسيادة أدبيين عززا المكانة التي تمتع بها هؤلاء .

ومفهوم الأدب نفسه يحيل إلى هذا الترابط المشار إليه ,ومن جانب آخر فان التعارض بين السمة المعنوية الروحية الشفافة للأدب والمادية التي تنطوي عليها التنمية في جوهرها كان محسوما لصالح الأدب ،ففي فورة الرأسمالية كما يقول تيري إيغلتون ظهر الأدب كواحد من الميادين القليلة التي يمكن الاعتراف من خلالها بالقيم التي محتها الرأسمالية من وجه المجتمع الإنكليزي وأمكنت الإشارة إلى ما يسميه الإبداع التخييلي بوصفه صورة للعمل غير المستلب وصار ينظر إلى العمل الأدبي بوصفه وحدة عضوية غامضة بالتعارض مع فردانية عالم التسوق الرأسمالي المتشظية والمتناثرة فهو عفوي وليس محسوبا عقليا وإبداعيا وليس ميكانيكيا ولم تعد كلمة شعر تشير إلى صيغة تقنية للكتابة وإنما أصبحت تنطوي على تضمينات اجتماعية وفلسفية وسياسية مستشهدا بأعمال وليم بليك وشيلي**(4)** ونكتشف من هذا التوصيف بان النزوع إلى ربط الفن بالقيم الاجتماعية أمر طبيعي ولعله جوهري في الحركة الواقعية ،وكان استخدام مصطلح النظرية الاجتماعية بديلا عن مصطلح (مجتمع) عند الكثير من الكتاب الأمريكيين على سبيل المثال ومنهم جاك لندن وفرانك نوريس وغيرهما**(5)**.

ولابد من الإشارة إلى مسالة مهمة في هذا الجانب تتمثل ب(التيار الاجتماعي في الأدب)وهو تيار لم يكن جديدا على الأدب العربي إلا أن الجديد فيه انه يوظف الأدب لخدمة الغايات الاجتماعية في وقت لم تعد فيه هناك قيمة كبيرة للتشكيل اللغوي والجماليات التعبيرية الخالية من الأفكار التي تمس حياة الإنسان وقضاياه المستجدة, حيث بدا عهد جديد ارتقى فيه التعبير عن المشكلات الاجتماعية إلى مستوى جديد عبر عن الملابسات الاقتصادية والعمرانية في المجتمع وانتقل الأدب من الصور السطحية الهزيلة والتقليدية والتلاعب بالألفاظ إلى التعبير العناية بالمضامين الجديدة التي تهم الإنسان**(6)** فبدأت تلوح في الأفق بوادر الأدب الاجتماعي الذي عني أدباؤه بالتعبير عن القضايا الاجتماعية كقضايا المرأة والفقر والجهل وغيرها من الظواهر التي نجدها في أشعار الرصافي والزهاوي وحافظ في المرحلة الثانية من حياته وغيرهم كثير, ويحدد محمود تيمور هذه القضايا بالاتجاهات والميول الجديدة وتصوير الآلام التي يعانيها المجتمع وتصوير نضاله لتكميل نفسه والمشاركة في الدعوة إلى الأهداف العقلية والاجتماعية الرشيدة التي تمثل وجدان الشعوب وعلى رأسها الدعوة إلى الحرية والوحدة الإنسانية والسلام العالمي ,إلى جانب العمل لكي يكون الأدب وسيلة من وسائل التربية الاجتماعية للفرد والتوجيه العام للجماعة وذلك بتوسيع الخبرة بالحياة وإضافة تجارب جديدة والتبصر لحقيقة المشاعر والتصرفات عن طريق التحليل النفسي العميق لمختلف ألوان السلوك**(7)** ومن المؤكد أن هذا الاستشراف الذي يقدمه الأدب فيما يخص وظيفته يؤكد الرابطة العميقة بينه وبين المجتمع بوصفه نتاجا جمعيا على الرغم من السمة الذاتية التي يتلون بها,ذلك أن القيم والعادات والقضايا التي تنبع منها وتلك القضايا المستجدة بحكم التطور وحركة الزمن كلها تمثل عوامل تأثير يخضع لها أدباء كل مجتمع في أي عصر وهي تمثل عصب الهوية الخاصة بكل أدب من الآداب,والأدب يعبر دوما عن المرحلة التي ينتمي إليها لا لكونه الإرث المؤكد لأية امة من الأمم وحسب بل لأنه التعبير الحقيقي عن وجودها وهويتها,من هنا نلمح التمايز في سمات الأدب الواحد في كل عصر من عصوره,والتعبير عن الهموم الجديدة للإنسان العربي تباين وفقا لتباين ظروف الحياة في كل عصر,ن هنا نفهم أن التوجه نحو اعتبار الإنسان القيمة الأساسية في الأدب العربي الحديث يمثل استجابة الأدب للتحولات الجديدة وذلك بعد أن كان الأدب شكلا لفظيا جماليا يقوم على الإمتاع في الفترة التي اصطلح على تسميتها بالعصور المتأخرة والتي تمتد من سقوط الحضارة العربية في بغداد 656هـ وحتى مرحلة نهايات الاحتلال العثماني للدول العربية,ثم ما تبعها من استعمار غربي فتح أعين الأدباء على قضايا التحرر والاستقلال وبناء المجتمعات على أسس جديدة بلورت ما يمكن تسميته بتنمية أدبية يكون فيها الأدب وسيلة فعالة للنهوض وتغيير الواقع السلبي وتكون فيها الشخصية الإنسانية الهدف الأسمى ,من هنا نفهم التحول الكبير الذي أصاب الأدب

العربي الحديث والذي يميل الكثير من الباحثين إلى حصره بالأنواع الأدبية الجديدة والثورة اللغوية الأسلوبية التي نزعت الى التخلص من سفاسف التعبير البديعي التي أغرقت الأدب في ظلماتها لعصور طويلة.

ثانيا-مفهوم الإبداع الأدبي ومحورية الشخصية الإنسانية في التفكير التنموي.

يمتد مصطلح الإبداع إلى جميع نواحي الفكر والعمل البشريين ،ولا ينحصر وجوده في ميادين معينة دون غيرها،وهو مصطلح فضفاض يحسد وحدة القدرة الإنسانية وعظمة الكائن البشري ،وإذا تصفحها على عجل جانبا من تعريفاته تأكدت لدينا هذه الحقيقة،فعملية الإبداع مظهر نفسي داخلي للنشاط الإبداعي الذي يتضمن اللحظات والآليات والديناميت النفسية بدءا من ولادة المشكلة وصياغة الافتراضات وانتهاء بتحقيق النتاج الإبداعي**(8)** وهو في منظوره الأشمل استعداد الفرد للتكامل لتكامل القيم والحوافز الأولية داخل تنظيمات الذات والقيم الشعورية وتكامل الخبرة الداخلية مع الواقع الداخلي ومتطلباته،والعملية الإبداعية موجودة لدى كل فرد وليست حالة مقصورة على فئة مختارة،فجميع العمليات المعرفية والمزاجية والدفاعية موجودة لدى كل الأفراد،غير أن ذلك لا يعني أن كل فرد مبدع متميز فقد تبلغ العملية الإبداعية ذروتها عند أفراد متميزين لأسباب شخصية أو اجتماعية كثيرة وتتفاوت في قيمتها**(9)** وتنطبق هذه الحقيقة على الإبداع الأدبي القائم على الموهبة وصقل الموهبة،وهما أمران انتهى النقاد العرب القدماء والمحدثين وغيرهم من تقريرهما،وابن قتيبة الناقد العربي القديم والعالم بالشعر يقيد عملية الإبداع الشعري بأوقات وحالات مخصوصة سماها إمارات يبعد فيها قريبه ويستوعب فيها ريضه وقد يتعذر عمله ولا يعرف سبب لذلك**(10)**وهي محاولة واضحة لتحديد اثر العامل النفسي في الإبداع وانعكاس ذلك على المتلقي سلبا وإيجابياتها،،أما ابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هجرية)فقد أسهب في الحديث عن معاناة الشعراء في صنع القصيدة والشعر عنده نتاج فكري يدور في إطار الموهبة والإبداع الفني الصادر عن وعي عقلي وإرادة متمكنة وعقل جامع (11)ويضع خريطة افتراضية لخطوات إبداع القصيدة بدءا من مرحلة كونها فكرة نثرية وانتهاء بالتهذيب وإعادة النظر(12) ويطول الحديث عن مفهوم الإبداع الأدبي عند العرب وما يهمنا ليس الإبداع بحد ذاته بل مكانة المبدع وأهميته التي ترتبط بمقدار ما يقدمه للآخرين لان الشعر عند العرب له غايات سامية تتنوع في سمتها بين الاجتماعي والسياسي والفكري ،مع احتفاظه بقدر معقول من الذاتية في خضم انخراطه في الاتجاه الموضوعي الذي تسلكه القصيدة وهي تخترق حياة الناس وتؤثر فيهم،وقد انتهت الرؤية العربية القديمة إلى تقرير غائية أخلاقية للقصيدة ،وما كان الحديث النبوي الشريف (إن من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا) إلا توكيدا لغايات

السامية للقصيدة،لان التوجيه الأخلاقي الذي تضطلع به القصيدة العربية القديمة عموما يمثل وسيلة فعالة في الخطاب الموجه لمجتمع مترامي الأطراف متذبذب في استقراره المكاني مما يصعب عملية بلورة القيم الثابتة التي تحولت إلى متعارفات أخلاقية غير مكتوبة بصيغة نصوص قانونية تنظم حياة الناس وعلاقاتهم فيما بينهم،وهي قيم أسهمت القصيدة في ترسيخها وأشاعتها حتى تحول الشعر الى موجه أخلاقي استثمر ولع العرب به ،وظلت القصيدة تؤدي دورها في بناء أسس الشخصية المجتمعية الإيجابية حتى عصور متأخرة،على أن من الممكن افتراض التأثير السلبي للمدنية وتعقد حياة الناس على دور الأدب في عملية بناء الشخصية الإنسانية،غير أن الأدب العظيم يحمل دائماً أسباب خلوده فحلت الرواية ومن قبلها المسرح محل الشعر نسبيا حين فرضت وجودها الفني وخطت خطوات واسعة تحولت معها إلى فن الشعب ،وإبان التطور الذي أصابها في القرن التاسع عشر وتحررها من النزعة التاريخية أصبحت الرواية اقتربت الرواية من الإنسان وأصبحت تعبر أكثر عن همومه ومشكلاته ،فهي على حد قول رولان بارث عمل قابل للتكيف مع المجتمع وتبدو كأنها مؤسسة أدبية ثابتة الميدان ،فهي الجنس الأدبي الذي يعبر بشيء من الامتياز عن مؤسسات مجموعة اجتماعية ،كما أنها استفادت في الوقت نفسه فنيا وموضوعيا بأن أصبحت أعمق مدلولا وأنفع وظيفة اجتماعية وغدت وسيلة من وسائل التربية والتثقيف والترفيه وتهذيب الطباع وترقيق العواطف وصقلها دون أن تكون متدرجة تحت مسمى الأدب التعليمي بحكم شموليتها الثقافية المتميزة بالعمق والأصالة الفكرية **(13)**.

إن بدايات هذا التحول في وظيفة الرواية صادف مناخا اجتماعيا وفكريا مناسبا لعملية التحول تلك فالعالم الذي كان واقعا تحت التسلط الاستعماري تلقف هذا الفن مستفيدا من استجابته الفنية والشكلية للأفكار التحررية الجديدة وحيث الرواية وسيلة للدفاع عن حقوق الشعوب المستعمرة وأداة من أدوات التغيير ،والتعبير عن مطامح التحرر والتقدم والعيش الكريم **(14)** ،وقد مثلت الواقعية إحدى أهم المحطات التي قطعتها الرواية في مراحل تحولها الفني والتي توصف بكونها الأقرب إلى السمة الاجتماعية في وظيفة الأدب إلى جانب وظيفته الرئيسية المتمثلة بالجمالية التي لا يمكن أن يتصف بالأديبة من غيرها ،وقد خلقت السمة الاجتماعية إشكالية فنية واجهت الرواية الواقعية ذلك لان الواقعية عموما تحمل في ثناياها نزعة تعليمية كما يقول الناقد رينيه ويليك ويضيف انه في المفهوم الواقعي على الكاتب ان يصف المجتمع كما هو وفي الوقت نفسه لابد له من أن يصفه كما ينبغي له أن يكون(15) .

والأمر نفسه واجهه الشعر وحيث التذبذب المطلوب بين الجمالية والنفعية ،وقد تعرض الناقد المعروف إليوت لهذا الجدل في مقالة ضمن كتاب عن الشعر والشعراء الصادر عام ١٩٥٧ والتي يرى فيها ضرورة تبين الوظيفة الاجتماعية للشعر على الرغم من ان الوظيفة الأساسية

للشعر هي المتعة أيا كان مفهومه لها ويؤكد ان مل شاعر جيد سواء أكان عظيما ام غير عظيم لديه شيء آخر يمنحه لقراءه بالإضافة إلى المتعة لأنها لا يمكن أن تكون وحدها الغاية التي ما بعدها غاية ،وهو الغرض الاجتماعي الخاص الذي يؤديه الشعر وفي أنواع متعددة منه يقوم بتوصيل التجارب الجديدة على النحو الذي يهذب حياتنا ويضيف إليها ويثريها**(16)**.

وما بين جدل الجمالي والنفعي يحتل الإنسان موقعا متميزا بوصفه يمثل طرفي معادلة الإبداع الأدبي من حيث كونه منتجا ومتلقيا والأدب بهذا التوصيف رسالة لا بمعنى الشفرة التي عبر عنها السيميائيون الذين اتجهوا لتفريغ الأدب من محتواه الإنساني من خلال المبالغة في الطروحات الشكلية التي سلبت الأدب روحه الخفيفة ،فالإنسان كان وما يزال الموضوع الأهم للآداب أيا كانت سماتها وحتى في ذاتيته فقد عبر عن التجربة الخاصة التي سعى الكاتب إلى تعميمها بقصد المشاركة مع الآخرين ،من هنا فان الأدب يحارب مفهوم العزلة الاجتماعية من خلال ما يتيحه من التعميم للتجارب الإنسانية وما يتبعه من تجاوب يمنح النص أبعادا إنسانية قد لا يكون كاتبه قد حلم بها أو توقعها وسعى إليها يوما.

وإذا تتبعنا تيارات الأدب وجدنا أنها تلتقي في توجهها نحو اعتبار الإنسان وقضاياه الجوهر الذي تقوم عليه روح الأدب مع الأخذ بنظر الاعتبار الوظيفة الجمالية الأساسية الآي يضطلع بها الأدب بوصفه خطابا جماليا يحاكي أرق ما في الشخصية الإنسانية،ومع إن هناك انقساما بين النقاد مابين وظيفية الأدب وجماليته تمثل بظهور تياري الفن للفن والفن للمجتمع والأول يحمل شعار النزعة الجمالية التي سادت في القرن التاسع عشر والتي ترى أن النزعة الجمالية تفضل الاعتبارات الأخلاقية**(17)**،إلا أن المؤكد أنها يتفقان في نهاية المطاف على الحاجات الجمالية كغيرها من الحاجات ،من هنا فليس هناك برأينا اختلاف جذري بل اتفاق على ما يمثله الأدب في الحياة من خلال الحاجات الروحية والمادية التي يسعى لتلبيتها،وفي تأكيد هذا التوازن يقول المازني :(وهل ليس للشعر غاية إلا ما يعزونها إليه من اللذة على القلوب والسلوان على النفوس ؟أم هل صحيح أن ما يزعمون من أن الفنون تنشأ من أميال الإنسان الطبيعية وتملأ فراغ الرجل المستوحش ،إن هذا الرأي الذي لا يخرج إلا من رأس منطيقي جاف يسفل بالشعر إلى منزلة الألاعيب ويا سوءها منزلة،ولكن هذا المنطق مكذوب لحسن الحظ وذلك ان السرور واللذة الحاصلين من الشعر إحدى غاياته ولا ريب لأنه إذا لم تحدث المتعة فقد ضاع فعله وصار كأنه لم يكن ولكنها ليست الغاية القصوى وإنما نتج عن هذا الغلط من الجهل وعجز الذهن عن التفكير الصحيح **(18)** ويؤكد أن غاية الشعر هي أن يدخل في متناول الحس العواطف والمدركات ومل ما له وجود في العقل وان يوقظ الحواس الخامدة والمشاعر الراكدة ويملأ القلب ويشعر الطبيعة البشرية كل ما يمكن احتماله وكل ما له قدرة على تحريكها وانبعاثها ويكشف عن وجوه الألم

والحزن والخطأ والإثم ويسد النقص في تجاريب المرء **(19)**ولو عدنا إلى تعريف الفن بأوضح تعبير لوجدناه يعبر عن حقيقة الاندماج بين الغايتين ،يقول ارنست فيشر:(إن الفن هو الأداة اللازمة لإتمام الاندماج بين الفرد والمجموع،فهو يمثل قدرة الإنسان غير المحدودة على الالتقاء بالآخرين وعلى تبادل الرأي والتجربة معهم) ويضيف:(لكن أليس هذا التعريف للفن بأنه وسيلة للاندماج في الواقع وسيلة الفرد إلى الالتقاء بالعالم والتعبير عن رغبته في التمرس بالتجارب التي يمر بها،،،أليس هذا تعريفا رومانسيا؟أو ليس من الاندفاع إلا نبني على أساس شعورنا الحاد بالتسابق بين أشخاصنا وبين احد أبطال قصة أو فلم-نتيجة عامة ونزعم أنها الوظيفة الأصلية للفن؟)**(20)**

إن هذا التعريف يدفع باتجاه اعتناق فكرة تداخل الغايات الكامنة في الإبداع الأدبي لتجعل الأدب مفردة من مفردات الحياة التي تعبر عن الوجود البشري وتخدمه ، وتؤكد أن الإنسان يمثل حجر الزاوية في غايات الأدب على تنوعها واختلاف مناحيها إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن الفن هو وليد عصره وهو يمثل الإنسانية بقر ما يتلاءم مع الأفكار السائدة في وضع تاريخي محدد،ومع مطامح هذا الوضع وحاجاته وآماله،وهو يمضي إلى ابعد من تلك الحدود ليجعل من اللحظة التاريخية المحددة لحظة من لحظات الإنسانية تفتح الأمل نحو تطور متصل**(21)**، ليتحصل لدينا مفهوم جديد يتمثل في غائية مفترضة للإبداع تتجاوز الأطر الجمالية مادتها الأدب نفسه والذي يكتسب بهذا المعنى بعده الإنساني طالما أن الإرث الإبداعي الأدبي ليس حكرا على الأمة المنتجة للأدب،بل تمثل إرثا إنسانيا ،من هنا نفهم سر خلود الأعمال العظيمة كملاحم الإغريق وكلكامش وملاحم العرب قبل الإسلام إلى جانب الأعمال الأدبية اللاحقة لعمالقة الأدب في شتى أصقاع الأرض .

ثالثا- الإنسان بين الأدب وغايات التنمية:

يصعب الفصل عادة بين أية ظاهرة وأسبابها والأدب ظاهرة إنسانية توافرت أسباب وجودها في كل زمان ومكان بسبب كون الإنسان واحدا وان اختلفت درجة مدنيته وتفاوتت عوامل حضارته وبدائيته،لكن من الجلي أن الأدب هو نتاج جمعي تتحدد سماته بالخصوصية الحضارية والفكرية التي تتميز بها الجماعة المنتجة له،ومن جانب آخر فان الأدب وسيلة لبناء الشخصية الإنسانية بما يحمله من قيم وأفكار إيجابية لطالما سعى الأدباء إلى ترسيخها ونشرها بين الناس،وبهذا المفهوم فهو أداة فعال لبناء المجتمع والحفاظ على وحدته وتماسكه،وهذه هي الوظيفة التي كان يقوم بها الأدب في المجتمع العربي القديم وحيث الحث على القيم الإيجابية من نخوة وشجاعة وكرم ،حتى بالنسبة لأولئك الأفراد الذين نفتهم قبائلهم لأسباب عدة وكونوا جماعات وحدتها الظروف ومتطلبات العيش ومنها جماعة الصعاليك التي تمثل ظاهرة اجتماعية أنتجت أدبا متميزا ذي طابع أنساني رسخ قيم الجماعة البديلة ،وفي المجتمعات الأكثر تطورا وتنظيما حمل الأدب غايات المجتمع لبناء الشخصية الإيجابية وعبر عن غايات التنمية البشرية من حيث كونها تدور حول تنظيم القدرات البشرية وأمور يتمكن الإنسان من خلالها سد حاجاته المادية والمعنوية والاجتماعية والعقلية،كما تعمل على توسيع قدرة الإنسان على بلوغ أقصى ما يمكن بلوغه من حيث كونه فردا أم مجتمعا.**(22)**

وبالنسبة للأدب العربي في مختلف عصوره فقد حمل على عاتقه مسؤولية بناء الشخصية الإنسانية من خلال الدعوة إلى القيم الإيجابية وترسيخها في السلوك البشري اليومي لان الفرد عضو في منظومة اجتماعية تحكمها العادات والتقاليد والأخلاقيات التي تقوم على القيم الإيجابية حتى في مجتمع ذي طبيعة بدوية كالمجتمع العربي قبل الإسلام،فالأعراف والعادات والتقاليد التي لم تكن مكتوبة ولا مفروضة في أطر قانونية ودساتير كانت مفروضة بحكم العرف الذي فرضته طبيعة الحياة في بيئة صحراوية مترامية الأطراف ،وهذه الأعراف تساهم مساهمة كبيرة في تكوين القيم جنبا إلى جنب مع الديانات فجرى العرف مثلا على أكرام الضيف واعتادوا على حفظ

الجوار وكانوا يتمسكون بما تحالفوا وتعاهدا عليه ويعدون نقضه مثلبة كبرى وهذا شأنهم في سائر القيم الأخرى. **(23)**

فالإنسان ظل هدفا لكل المعارف والنشاطات البشرية الموجهة في كل زمان ومكان وهي غاية التنمية نفسها، ومن هذه النقطة تلتقي مع الأدب في مفهومه الإيجابي الخلاق, وان كانا يختلفان في النقطة التي ينطلقان منها لتحقيق غاياتهما الى جانب السمة النظرية التي يتسم بها الادب والقائمة على خلفية الخبرة الجمعية المتصلة من تجارب الأسلاف الطويلة الي اعتدت الى مفاتيح العيش بسلام وتوازن مع الآخرين وصولا إلى تحقيق التوازن الاجتماعي المطلوب في معادلة الحقوق والواجبات،والمثير للدهشة في هذا الجانب أن هناك مجتمعات دأب الدارسون على وسمها بالبدائية أفلحت في إيجاد نظم بسيطة نظمت حياتها تتجاوز في قيمتها أطر الصورة الساذجة التي سعت الدراسات الحديثة إلى ترسيخها في أذهان القراء, ولو عدنا مثلا مجتمعات الصيد البدائية لوجدنا السمة الاجتماعية قد هيمنت على التفكير الإنساني ودفعت إلى نوع من الائتلاف الذي نظم عمليات الصيد والسكن في تجمعات إتقاءا للإخطار التي تحيط بالجميع،ومن هذه النقطة نشأت الغرائز الاجتماعية أو بالأصح الكامنة في صلب تكوين الكائن البشري،وتطورت هذه النزعة لتتسرب إلى النتاج الفكري والإبداعي الذي وجد في مفهوم القبيلة عند العرب على سبيل المثال قيمة عليا تتحكم في ميول الفرد وخياراته الحياتية بنا توفره من عناصر الأمن والحماية والكرامة في مجتمع يقوم على نوع من الصراع من اجل البقاء.

وبالعودة إلى التنمية ومفرداتها وجدناها تمثل التفكير النامي والمتقدم للعقل البشري ونظرته الى موضوع الفرد بوصفه القيمة العليا في أي مجتمع ولها عدة أهداف منها الارتقاء بشكل متكامل أخلاقي وعقل واجتماعي وصحي وعلمي وإحداث تغيير حقيقي في حياة الإنسان ينقله إلى وضع أفضل وتمكينه من توسيع نطاق خياراته من خلال استخراج مكامن المواهب والقدرات وتنميتها وزرع الثقة بالنفس **(24)** وهو ما يتطابق تماماً وأهداف الأدب الذي يمثل فلسفة معتدلة للحياة تتجاوز الأطر الذاتية إلى تعميم التجربة الخاصة والسعي إلى إشراك المتلقي في الرؤية التي يطرحها الأديب أيا كانت درجة ذاتيتها،بدليل أن التاريخ الأدبي عكس التجاوب الكبير مع أعمال أدبية عبرت عن هموم شخصية وهو أمر ينطبق على مجمل الفنون الأخرى كالرسم والنحت والموسيقى وغيرها وحيث التجربة الخاصة جزء لا يتجزأ من الكيان الكلي طالما أن الأديب والفنان مرآة مجتمعه التي تعكس خصوصيته الحضارية والفكرية.

ومع إن هذا التقاطع بين الأدب كفكرة والتنمية كغاية ووسيلة في آن معا فقد يضر بجماليات الأدب وفنيته التي طالما سعى الأدباء إلى تأكيدها والحفاظ عليها في مختلف العصور والآداب إلا أن حيزا من الخصوصية ظل موجودا في كل من الأدب والتنمية يحافظ عليها ،التنمية برؤيتها

الواقعية إلى كل ما من شأنه الارتقاء بالإنسان وتسهيل حياته قدر المستطاع والأدب برؤيته القائمة على رسم النموذج والمثال للشخصية الإنسانية وتدعيم الجوانب الإيجابية والقيم السليمة ،وظل الإنسان في كل زمان ومكان غايتهما الأسمى والاهم لأنه الثروة الحقيقية التي يقوم عليها الوجود على الأرض .

الهوامش

1- الأدب اللاتيني /١٣
2- خمسة مداخل للنقد الأدبي/ ١٣٨
3- جغرافية التنمية / ٢٥
4- نظرية الأدب (إيغلتون) /٤١
5- خمسة مداخل للنقد الأدبي/ ١٣٦
6- اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة / 45
7- نفسه/ 48
8- الإبداع العام والخاص/٣١
9- نفسه/١١
10- الشعر والشعراء ٢٥/١
11- عيار الشعر /٧
12- نفسه/8
13- في نظرية الرواية –بحث في تقنيات السرد/٣٥
14- نفسه/34
15- منهج الواقعية في الإبداع الأدبي/38
16- نظرية الأدب –دراسة في المدارس النقدية الحديثة/١٨٦
17- معجم مصطلحات الأدب/ ٢٨٠
18- الشعر غاياته ووسائله/ ٩٧
19- نفسه/100.
20- ضرورة الفن/ ١٥
21- نفسه/20.
22- التنمية البشرية في السنة النبوية/ ٣
23- الإنسان في الشعر الجاهلي/ ١٩٥
24- التنمية البشرية في السنة النبوية/ ٤

المصادر

1- الإبداع العام والخاص-الكسندر روشكا- ترجمة:د.غسان عبد الحي أبو فخر-سلسلة عالم المعرفة-رقم 144-الكويت-1989.

2- اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة-محمود تيمور- المطبعة النموذجية-مصر -1970.

3- الأدب اللاتيني ودوره الحضاري- د.احمد عثمان- سلسلة عالم المعرفة رقم 141- الكويت 1989.

4- الإنسان في الشعر الجاهلي-د.عبد الغني احمد زيتوني- مركز زايد للتراث-ط1- العين-2001.

5- التنمية البشرية في السنة النبوية(دراسة موضوعية)- سماح طه احمد الغندور-رسالة ماجستير في كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بغزة-2011.

6- جغرافية التنمية-د.محمد دلف وفواز احمد الموسى-دار الفرقان للغات-ط1- حلب- 2009.

7- خمسة مداخل للنقد الأدبي- سكوت ويلبرس-ترجمة:عناد غزوان وجعفر صادق الخليلي-دار الرشيد للنشر- بغداد- 1981.

8- الشعر غاياته ووسائله-عبد االقادر المازني=تحقيق د.فايز ترحيني-دار الفكر اللبناني-ط2 – بيروت-1990.

9- الشعر والشعراء- ابن قتيبة أبو مسلم الدينوري(ت276هـ)-تحقيق احمد محمد شاكر-دار الكتاب – مصر-1979.

10- ضرورة الفن-ارنست فيشر- ترجمة: اسعد حليم-الهيئة المصرية العامة للكتاب-مصر- 1971.

11- عيار الشعر-ابن طباطبا العلوي(ت332هـ)- تحقيق:د.عبد العزيز بن ناصر المانع-اتحاد الكتاب العرب-دمشق-2005.

12- في نظرية الرواية(بحث في تقنيات السرد)- د.عبد الملك مرتاض- سلسلة عالم المعرفة رقم 240-الكويت-1998.

13- معجم المصطلحات الأدبية-إعداد:إبراهيم فتحي-التعاضدية العمالية للطباعة-تونس-1986.

14- منهج الواقعية في الإبداع الأدبي- دكتور صلاح فضل- دار المعارف-ط2- مصر-1980.

15- نظرية الأدب-تيري ايغلتون- ترجمة:ثائر ذيب- سلسلة دراسات نقدية عالمية-وزارة الثقافة السورية-دمشق- 1995.

16- نظرية الأدب-دراسة في المدارس النقدية الحديثة- د.شفيع السيد- مكتبة الآداب-ط1- القاهرة-1982.